المحاضرتان 10+11

المؤسسات الفكرية والنشاط العلمي

لو أردنا دليلاً على مدى الهوة العميقة التي كانت تفصل الشرق عن الغرب في عصر المماليك والعصور الوسطى، لكفانا أن نعرف أن نسبة 95 % على الأقل من سكان الغرب في القرون الوسطى كانوا لا يستطيعون القراءة والكتابة، لدرجة أنه في عام 691هـ = 1291م لم يكن في دير القديس جالينو من الكهنة والرهبان من يستطيع حل الخط. وبينما كان هذا كله يحدث في الغرب، كانت آلاف مؤلفة من المدارس في القرى والمدن العربية الإسلامية تستقبل ملايين البنين والبنات، يجلسون على سجادهم الصغير، ويكتبون بحبر يميل إلى السواد فوق ألواحهم الخشبية، ويقرؤون مقاطع من القرآن حتى يجيدوها، ويجوّدون ذلك معاً بلحن جميل عن ظهر قلب. ويحدثنا أحد أساتذة تلك المدارس عن رحلة رسمية قام بها في أحد البلدان العربية الإسلامية فيقول: «لم أذهب إلى مدينة أو قرية إلا وجدت فيها طالباً من طلابي يتبوأ مركزاً هاماً».

وها هو غوستاف لوبون يقول: «إن الجدية التي أبداها المسلمون في طلب العلوم مدهشة حقاً، إنهم كانوا إذا افتتحوا مدينة واستولوا عليها كان أول ما يقدمون عليه أن يبنوا فيه مسجداً ومدرسة». وأضاف يقول: «إن خدمة المسلمين لم تكن أن تقدموا بالعلم من خلال التحقيق والتنقيب والدراسة والاكتشاف، أو إنهم نفخوا فيه بروح حديثة جديدة، بل إنهم بتأسيسهم للمدارس وتأليفهم وتصنيفهم وكتابتهم للكتب، فأشاعوها ونشروها في العالم ... إنهم كانوا لعدة قرون أساتذة أوربا، وبواسطتهم فقط شاعت العلوم والفنون»[i].

والأسطر القادمة تعبر عن ذلك، إذ سأعرض لمساجد ومدارس مصر والشام، وسأرصد النشاطات العلمية فيهما.

أولاً– مساجد الديار المصرية ومدارسها[ii]:

1– المساجد:

عندما قامت دولة المماليك أحدثت مساجد كثيرة، دلت على ذلك أقوال مؤرخي العصر المملوكي الكثيرة، وهي كالتالي:

ـــ فالقلقشندي يذكر: «كثرت عمارة الجوامع بالقاهرة في الدولة التركية، خصوصاً في الأيام الناصرية ـــ يقصد الناصر محمد بن قلاوون ـــ وما بعدها، فعمّر بها من الجوامع ما لا يكاد يحصى كثرة»، ويقول في موضع آخر: «وأما مساجد الصلوات الخمس فأكثر من أن تحصى وأعز من أن تستقصى»[iii].

ـــ ويقول المقريزي: (ت845هـ = 1441م): «وقد بلغت عدة المساجد التي تقام بها الجمعة مئة وثلاثين مسجداً»[iv]. ويقول خليل بن شاهين الظاهري (ت873هـ = 1468م) «إنّ بمصر والقاهرة داخل السور وخارجه ألف خطبة ونيف»[v]. وعند حديثه عن الناصر محمد بن قلاوون، يذكر يوسف بن تغري بردي (ت 874هـ = 1469م): «عُمِّرت في أيامه بالديار المصرية عدة جوامع تقام فيها الخطب زيادة على ثلاثين جامعاً»[vi].

ـــ وتحدث ابن أيبك الدواداري (ت 732هـ = 1331م) عن الجوامع التي أُنشئت في عهد الناصر محمد بن قلاوون في مصر والقاهرة جامعاً جامعاً، فبلغ عددها (27) جامعاً، وذلك فضلاً عن الجوامع في سائر الأعمال المصرية قبليها وبحريها[vii].

ـــ ولا أدل على كثرة مساجد مصر مما يعرضه ابن دقماق (ت 809هـ = 1406م) عندما عدّد وسمّى المساجد المنتشرة في جميع أرجاء مصر، سواء في الأسواق أو في الدروب والأزقة، فلا يكاد يخلو أي منها من خمسة أو أربعة مساجد على الأقل، ويصل العدد في بعضها إلى عشرين مسجداً[viii].

ولقد نشط سلاطين دولة المماليك في بناء المساجد وهندستها وتزيينها ورصد الأوقاف لها، فالظاهر ركن الدين بيبرس البندقداري أنشأ في موضع خارج القاهرة جامعاً سُمي باسمه: جامع الظاهر، وكان مهتماً جداً بهذا البناء، فسيّر بداية جماعة من المهندسين للكشف عن مكان لائق، فاختاروا ميدان قراقوش، ثم كتب بإحضار عمد الرخام من سائر البلاد، والجمال والجواميس والأبقار والدواب من سائر الولايات، وأمر بجلب الآلات والحديد والأخشاب من أجل الأبواب والسقوف وغيرها.

ثم توجه سنة 666هـ = 1267م إلى بلاد الشام، فنزل يافا وتسلمها من الفرنج بأمان، ثم هدمها وقسّم أبراجها على الأمراء، ونقل كثيراً من أخشابها ورخامها إلى القاهرة، واستخدمه في بناء جامعه، وكان قد ابتدئ به في ربيع الآخر عام 665هـ = 1266م، وكملت عمارته في شوال من عام 667هـ = 1268م[ix]. وكان الظاهر بيبرس قد أنهى في عام 662هـ = 1263م بناء مسجد بجوار المشهد الحسيني بالقاهرة[x].

وكان السلطان الناصر محمد بن قلاوون أكثر سلاطين المماليك عناية بالمساجد، وقد وضّحت أقوال المؤرخين التي استعرضْتُها ذلك، وذلك ما جعل المقريزي يقول عنه: «كان محباً للعمارة وبلغ مصروف العمارة في كل يوم من أيامه سبعة آلاف درهم فضة»، وأشار ابن دقماق إلى كرم الناصر بقوله: «أما نفقات العمائر فكان شيئاً خارجاً عن الحد»[xi].

ومن أعماله تشييده لجامع القلعة على قلعة الجبل، وسُمي هذا الجامع باسمه أيضاً، وكان مكانه جامع قديم وبجواره عدة أبنية، فهدم الجميع وعمّر جامعه على أحسن شكل، وأنشأ معه قبة ومقصورة، وكان ذلك عام 718هـ = 1318م، ويصف المقريزي هذا الجامع بأنه «أحسن عمارة، وعمل فيه من الرخام الفاخر الملون شيئاً كثيراً، وعمّر فيه قبة جليلة، وجعل عليه مقصورة من حديد بديعة الصنعة، وفي صدر الجامع مقصورة من حديد أيضاً برسم صلاة السلطان»[xii]. وفي عام 714هـ = 1364م بنى الناصر محمد جامعاً عند المشهد النفيسي، وحضر أول خطبة جمعة فيه أمير المؤمنين المستكفي بالله أبو الربيع سليمان وولده[xiii].

وشيّد السلطان حسن بن السلطان الناصر محمد بن قلاوون جامعاً يعد من أشهر جوامع مصر بل والعالم وأعظمها، ويشكل أنموذجاً صادقاً لجوامع عصر المماليك، لما فيه من عظمة البناء ووضوح الهدف، ابتدأ بعمارته في موضع تحت قلعة الجبل، رصد له في كل يوم عشرين ألف درهم[xiv]. واستمرت العمارة جارية بهذه المدرسة مدة حياة السلطان حسن بن الناصر محمد، منذ سنة 757هـ = 1356م وحتى 762هـ = 1361م، وكان يصرف عليها بسخاء شديد، وقد قال في ذلك: «لولا أن يقال إن ملك مصر عجز عن إتمام بناء بناه لتركت بناء هذا الجامع من كثرة ما صُرف عليه»[xv].

وفي عام 696هـ = 1296م أمر السلطان حسام الدين لاجين بتجديد عمارة الجامع الطولوني، وندب لذلك الأمير علم الدين سنجر الدواداري، وأقرّ لذلك عشرة آلاف دينار من خالص ماله[xvi].

وكان لأمراء دولة المماليك نشاط واسع في بناء المساجد، فبلغ مثلاً عدد الجوامع المبنية من قبل أمراء الناصر محمد بن قلاوون وكتّابه قرابة ثلاثين جامعاً[xvii]. فالأمير سيف الدين قوصون (ت 742هـ = 1341م) أحد المماليك السلطانية، وصاحب الشأن في سلطنة مصر، بنى عام 730هـ = 1329م جامع قوصون خارج باب زويلة، وبنى الأمير عز الدين أيدمر الخطيري (ت 737هـ = 1336م) أحد أمراء الناصر ابن قلاوون جامع الخطيري بناحية بولاق، وأكثر

الخطيري من الاهتمام بجامعه هذا، فبالغ في عمارته وتأنق في رخامه حتى جاء من أجمل جوامع مصر كما وُصف[xviii].

وأما الأمير ألطنبغا المارداني (ت 744هـ = 1343م) أحد أمراء محمد بن قلاوون ووالي حماة ثم حلب، فقد شيّد جامع المارداني خارج باب زويلة في مكان كان مقابر لأهل القاهرة، والأمير آقسنقر الناصري (ت 744هـ = 1343م) أحد مماليك المنصور قلاوون ونائب صفد وغزة، بنى جامع آقسنقر قرب قلعة الجبل، بناه من الحجر والرخام، وكان يشرف بنفسه عليه، ويحمل التراب مع العمال[xix]. وفي عام 746هـ = 1345م شيّد الأمير بهاء الدين أصلم (ت 747هـ = 1346م) أحد مماليك المنصور قلاوون جامع أصلم، وأنشا الأمير سيف الدين منجك اليوسفي (ت 776هـ = 1374م) جامع منجك تحت قلعة الجبل[xx].

ولم يقف النشاط العمراني عند السلاطين والأمراء، فكان لرعايا دولة المماليك في ذلك مشاركة محمودة؛ فالعالم الصاحب تاج الدين محمد بن محمد بن سليم بن حنا (ت 707هـ = 1307م) نائب الوزارة، بنى عام 672هـ = 1273م جامع دير الطين، وشيّد جامع ابن الظاهر بالقرافة الصغرى العالُم فتح الدين محمد بن عبد الله بن عبد الظاهر (ت 691هـ = 12391م)، كاتب الإنشاء وصاحب المناصب العالية في عصر المنصور قلاوون[xxi]، وشيّد القاضي فخر الدين محمد بن فضل الله (ت732هـ = 1331م) الجامع الجديد الناصري على شاطئ النيل من ساحل مصر، ومساجد أخرى كثيرة، وبنى جامع الأسيوطي بطرف جزيرة الفيل بناحية بولاق القاضي شمس الدين محمد بن إبراهيم بن عمر السيوطي (ت 749هـ = 1348م) ناظر بيت المال[xxii].

وأنشأ رئيس الأطباء في ديار مصر صلاح الدين يوسف المغربي جامع ابن المغربي على الخليج الناصري، وبنى الدلاّل نجم الدين بن غازي عام 741هـ = 1340م جامع ابن غازي، وشيّد أحد جنود الجيش ويُعرف ببركة جامع بركة، وأنشأ جوهر السحرتي اللالا أحد خُدّام الناصر بن قلاوون جامع الطواشي عام 701هـ = 1301م[xxiii].

ونأتي إلى الحياة العلمية في المساجد؛ فقد أقيمت مجالس العلم في مساجد العصر المملوكي، ودُرِّست فيها العلوم الدينية وعلوم اللغة العربية وغيرها، وبذلك ظلّ المسجد يؤدي الدور الفكري إلى جانب دوره الديني. فلقد حفلت مساجد مصر بالفعاليات العلمية، ودُرِّس فيها مختلف أنواع العلوم، كإقراء القرآن الكريم، والتفسير، والحديث، وفقه المذاهب الأربعة، والنحو، والطب، والتصوف، وغير ذلك من العلوم، وذلك أضاف إلى المسجد دوراً رائداً في الحياة الفكرية، فكان من أقوى المؤسسات تأثيراً في حياة الناس و فكرهم آنذاك.

فكان المسجد في عصر المماليك أشبه بمدرسة يتلقى فيه طلبة العلم مختلف أنواع العلوم، وخير مثال على ذلك الجامع العتيق، الذي يقال له أيضاً جامع عمرو ابن العاص، كان فيه في كل بقعة حلقة علم، وينقل المقريزي عن غيره من العلماء أنه كان في هذا المسجد قبل وباء عام 749هـ = 1348م بضعاً وأربعين حلقة لإقراء العلم لا تكاد تبرح منه[xxiv]، وفيه ثماني زوايا دُرِّست فيها العلوم، وهي: ــ زاوية الإمام الشافعي ــ الزاوية المجدية ــ الزاوية الصاحبية التاجية ــ الزاوية الكمالية ــ الزاوية التاجية ــ الزاوية المعينية ــ الزاوية العلائية ــ الزاوية الزينية[xxv].

وقُررت في جامع الحاكم أربعة دروس لإقراء الفقه على مذاهب الأئمة الأربعة، ودرسٌ لإقراء الحديث النبوي، ودرسٌ للنحو، ودرسٌ لتعليم القراءات السبع، ولكل درس مدرّس وعدد كثير من الطلبة، ورُتّبت فيه أيضاً متصدرون لتلقين القرآن الكريم، وعدد من القرّاء يتناوبون على قراءة القرآن، ومعلمٌ يُقرئ أيتام المسلمين كتاب الله عز وجل[xxvi]. ورُتّبت في جامع ابن طولون دروس لإلقاء الفقه على المذاهب الأربعة، ودرس لتفسير القرآن العظيم، ودرس للحديث الشريف، ودرس لتعليم الطب، وفي عام 767هـ = 1365م أُدخل فيه سبعة من المدرسين المختصين بتدريس المذهب الحنفي[xxvii].

وأما جامع السلطان حسن، فقد طغت عليه صفة المدرسة أكثر من المسجد، دللت على ذلك أقوال المؤرخين، إذ يسميه القلقشندي بالمدرسة، ويلقبها بالمدرسة العظمى، ويصفه المقريزي بالجامع المدرسة، فيقول عنه: «هذا الجامع يُعرف بمدرسة السلطان حسن» و«في هذا الجامع عجائب من البنيان ... ومنها المدارس الأربع التي بدور قاعة الجامع»[xxviii].

2ــ المدارس (الجامعات):

صار في مصر في عصر المماليك عدد كبير من المدارس يثير الدهشة والإعجاب، فلقد أحصيتُ عند المقريزي خمساً وخمسين مدرسة شُيدت في مصر في عصر دولة المماليك، وقدّم بحثاً مطولاً عنها[xxix]، وشهد ابن بطوطة على هذه الكثرة حين زار مصر، بقوله: «وأما المدارس بمصر فلا يحيط أحد بحصرها لكثرتها»[xxx].

فمن مدارس السلاطين؛ المدرسة المعزية التي بناها المعز أيبك التركماني عام 654هـ = 1256م، تلاه الظاهر بيبرس الذي بدأ بتشييد مدرسته الظاهرية في القاهرة عام 660هـ = 1261م، وفرغ منها عام 662هـ =1263م، فاشتملت على أربعة أواوين في كل إيوان درس[xxxi]. وأنشأ السلطان المنصور قلاوون الألفي المدرسة المنصورية في القاهرة، وعمّر أيضاً عام 682هـ = 1283م مدرسة تربة أم الصالح بالقرب من المشهد النفيسي من أجل زوجته أم ابنه

الملك الصالح علاء الدين علي[xxxii]. واشترك في بناء المدرسة الناصرية سلطانان مملوكيان، فقد بدأ بعمارتها السلطان زين الدين كتبغا المنصوري، ثم خُلع عن منصبه قبل أن يكملها، فأتم بناءها الناصر محمد بن قلاوون بين عامي 698ــ 703هــ = 1298ــ 1303م[xxxiii].

واهتم أمراء المماليك ببناء المدارس اهتماماً فاق اهتمام السلاطين، فقد أقام المدرسة الطيبرسية في القاهرة بجوار الجامع الأزهر الأمير علاء الدين طيبرس بن عبد الله الوزيري (ت 719هــ = 1319م) نقيب الجيوش، وعند وفاته دُفن فيها. وأنشأ الأمير علاء الدين أقبغا عبد الواحد (ت 744هــ = 1343م) استادار الملك الناصر محمد بن قلاوون المدرسة الأقبغاوية بجوار الجامع الأزهر [xxxiv]. وشيّد الأمير حسام الدين طرنطاي المنصوري (ت 689هــ = 1290م) نائب سلطنة مصر المدرسة الحسامية في القاهرة، وبنى نائب سلطنة مصر أيضاً الأمير شمس الدين قراسنقر المنصوري (ت 728هــ = 1327م) المدرسة القراسنقرية فيما بين باب العيد وباب النصر، وبنى الأمير علاء الدين مغلطاوي الجمالي (ت 730هــ = 1329م) المدرسة الجمالية، وشيّد الأمير سيف الدين صرغتمش الناصري (ت 759هــ = 1357م) المدرسة الصرغتمشية خارج القاهرة، وعنها قال المقريزي: «جاءت من أبدع المباني وأجلها وأحسنها قالباً وأبهجها منظراً»[xxxv].

وكانت لرعايا دولة المماليك مشاركة في تشييد المدارس، وبذلوا أموالهم لتأسيس مدارس لطلاب العلم، منهم العلماء الذين نقف لهم على عدة مشاركات، منها بناء العالم شمس الدين شاكر بن غزيل المعروف بابن البقري (ت 776هــ = 1374م) للمدرسة البقرية تجاه الجامع الحاكمي، وبناء الإمام الشيخ مجد الدين عبد العزيز بن الحسين (ت 680هــ = 1281م) للمدرسة المجدية الخليلية في مدينة مصر الفسطاط[xxxvi]. وشارك الأطباء كذلك في هذا النشاط، فبنى رئيس أطباء الديار المصرية مهذب الدين بن علم الدين بن أبي الوحش عام 684هــ = 1285م المدرسة المهذبية خارج القاهرة، وشرع رئيس الأطباء صلاح الدين يوسف المغربي ــ الذي تقدم أنه بنى جامعاً ــ في بناء مدرسة تجاه جامعه المطل على الخليج الناصري، لكنه توفي قبل إكمالها، فدُفن في قبة تجاه جامعه[xxxvii].

وساهم التجار بنصيب جيد في هذا المجال، فأنشأ رئيس التجار برهان الدين إبراهيم بن عمر بن علي المحلي (ت 806هــ = 1403م) مدرسة المحلي في ظاهر مدينة القاهرة، وعمّر كبير التجار ناصر الدين محمد بن مسلم (ت 776هــ = 1374م) المدرسة المسلمية في مدينة مصر[xxxviii].

وكما مثّل المسجد دوراً من أدوار المدرسة، مثّلت المدرسة دور المسجد في كثير من الأحيان، فكانت تُقام الخطب والصلوات في عدد منها، ففي عام 730هـ = 1329م اجتمع أحد الأمراء مع القضاة والفقهاء «بسبب عمل منبر بالمدرسة الصالحية بين القصرين من القاهرة لإقامة الجمعة بها، فأفتوه بجواز ذلك ... وأقيمت الخطبة في يوم الجمعة ... فكان يوماً مشهوداً». وأقيم في المدرسة الحجازية منبرٌ لخطبة يوم الجمعة، وعُين فيها إمامٌ يؤم الناس في الصلوات الخمس. ورُتب في المدرسة الناصرية إمامٌ أيضاً للغرض نفسه[xxxix].

وظهرت في عصر المماليك مدارس تخصصية، فكانت كل مدرسة تُدرّس علماً مستقلاً، مثل مدارس الفقه، التي اختصت بتدريس فقه المذاهب الشافعية والحنفية والمالكية والحنبلية، فمثّلت ما يشابه في وقتنا هذا الجامعات المختصة، فمن المدارس التي درّست فقه المذاهب الأربعة مجتمعة المدرسة الصالحية، وهي أول مدرسة في الديار المصرية تختص بتدريس المذاهب الأربعة. ومن أبرز هذه المدارس أيضاً مدرستان: المدرسة والقبة المنصورية، والمدرسة الناصرية، فالمدرسة والقبة المنصورية قد رُتب فيهما إلى جانب دروس فقه المذاهب الأربعة درسٌ للطب، وآخر للحديث النبوي، وثالث للتفسير، وأما المدرسة الناصرية فقُرر فيها درس فقه المالكية بالإيوان الكبير القبلي، ودرس فقه الحنابلة بالإيوان الغربي، ودرس فقه الحنفية بالإيوان الشرقي، ودرس فقه الشافعية بالإيوان البحري. ومن هذه المدارس أيضاً مدرسة السلطان حسن بن محمد بن قلاوون وجامعه، ومدرسة الأمير سيف الدين شيخو، وخانقاه شيخو[xl].

واختصت مدارس أخرى كثيرة بتدريس الفقه الشافعي والفقه الحنفي معاً في مدرسة واحدة، ومن تلك المدارس المدرسة الظاهرية، درّس فيها فقهاء الشافعية فقههم في الإيوان القبلي منها، وفقهاء الحنفية في الإيوان البحري، بالإضافة إلى درس الحديث النبوي في الإيوان الشرقي، ودرس القراءات في الإيوان الغربي. ودُرِّس هذان المذهبان في المدرسة الفارقانية، وفي مدرسة الجاي، والمدرسة الأقبغاوية، والمدرسة القطبية، ومدرسة أم السلطان[xli].

ووُجد مدارس ليست بالكثيرة اختصت بتدريس فقه المذهبين الشافعي والمالكي معاً في موضع واحد، فكان منها المدرسة المسلمية التي دُرِّس فيها هذان المذهبان بناءً على شرط الواقف، والمدرسة الفاضلية، وقد جُعل فيها إلى جانب تدريس هذين الفقهين قاعة للإقراء، والمدرسة الحجازية [xlii]. ولم أقف في المصادر إلا على مدرسة واحدة اختصت بتدريس فقه المذهبين الحنفي والمالكي، وهي المدرسة المنكوتمرية [xliii].

واختصت مدارس كثيرة بتدريس الفقه الشافعي لوحده، تتفوق بعددها على المدارس الفقهية الأخرى، فدُرِّس هذا المذهب في المدرسة الفائزية، والمدرسة القطبية، والمدرسة الشريفية، والمدرسة الناصرية، والمدرسة الطيبرسية، والمدرسة الحسامية، والمدرسة البقرية، والمدرسة الملكية، والمدرسة السابقية، والمدرسة المجدية الخليلية[xliv].

كما كثرت المدارس المختصة بتدريس الفقه الحنفي أسوة بمدارس الشافعية، فدُرِّس هذا الفقه في المدرسة السيوفية، والمدرسة الأزكشية، والمدرسة الجمالية، والمدرسة البوبكرية، والمدرسة المهمندارية، والمدرسة الصرغتمشية[xlv].

وكانت مدارس فقه المذهب المالكي قليلة مقارنة بمدارس الفقهين الشافعي والحنفي، وكان منها المدرسة القمحية، ومدرسة العادل، ومدرسة ابن رشيق، والمدرسة الصاحبية[xlvi]. ولم أجد بعد البحث في المصادر أي مدرسة في مصر تختص بتدريس فقه المذهب الحنبلي وحده، كما لم يُدرس مشتركاً مع مدرسة فقهية أخرى، إلاّ في المدارس المختصة بتدريس المذاهب الأربعة.

واختصت مدارس بتدريس الحديث النبوي الشريف؛ فأول دار للحديث بُنيت على وجه الأرض بناها الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي بدمشق، ثم كانت دار الحديث الكاملية التي شيّدها الملك الكامل ناصر الدين بن الملك العادل أبي بكر محمد بن أيوب في القاهرة ثاني دار عُملت للحديث، وذلك عام 622هـ = 1225م[xlvii].

وتعددت بعد ذلك مدارس الحديث، فكانت المدرسة الخروبية، وجُعل في المدرسة الظاهرية درسٌ لعلم الحديث إلى جانب دروس الفقه والقراءات، وكذلك رُتّبت في المدرسة المنصورية دروسٌ للحديث النبوي إلى جانب دروس الفقه والتفسير والطب، ودُرّس الحديث النبوي في المدرسة الصرغتمشية إلى جانب الفقه الحنفي. واختصت مدارس بتدريس التفسير والقراءات والنحو؛ فدُرّس التفسير بالمدرسة المنصورية، والقبة المنصورية، وجامع ابن طولون، والجامع الأزهر. ودُرِّس علم القراءات في المدرسة الظاهرية، والمدرسة السابقية، وجامع الحاكم. ودُرِّس علم النحو في المدرسة الصاحبية وجامع الحاكم[xlviii].

3 ــ مدارس الصوفية:

وهي الخوانق والرُبط والزوايا، فالخانقاه كلمة فارسية تتألف من لفظين: خانة بمعنى دار، وكاه وهي لاحقة تفيد المكانية، فتأتي بمعنى البيت، وجُعلت لخلوة الصوفية فيها لعبادة الله تعالى، وظهرت في الإسلام في القرن الهجري الخامس تقريباً = الحادي عشر الميلادي [xlix].

وقد انتشر بناء الخوانق كثيراً في عصر المماليك، وقد بنى معظمها الأمراء، والأمثلة على ذلك كثيرة، فالأمير علاء الدين أيدكين البندقداري (ت 684هـ = 1285م) بنى عام 683هـ = 1284م الخانقاه البندقدارية تجاه المدرسة الفارقانية، وبنى الأمير علم الدين سنجر الجاولي (ت 745هـ = 1344م) عام 723هـ = 1323م الخانقاه الجاولية فيما بين القاهرة ومصر. وفي عام 725هـ = 1324م بنى الأمير شهاب الدين أحمد بن آقوس المهمندار الخانقاه المهمندارية خارج باب زويلة، وبنى الأمير بكتمر الساقي (ت 733هـ = 1332م) عام 726هـ = 1325م خانقاه بكتمر عند سفح الجبل قرب القرافة، وكذلك بنى الأمير سيف الدين شيخو العمري عام 756هـ = 1355م الخانقاه الشيخونية تجاه جامعه[l].

ومن السلاطين السلطان الناصر محمد بن قلاوون الذي شيّد خانقاه سرياقوس عام 723هـ = 1323م، وأكمل بناءها عام 725هـ = 1324م، وبنى السلطان المظفر بيبرس الجاشنكير خانقاه بيبرس بالقاهرة، وكان ذلك قبل أن يتولى منصب السلطنة، أي عندما كان أميراً عام 706هـ = 1306م[li].

وقامت هذا الخوانق وغيرها بدور علمي ونشاط فكري مشهود له، فكانت العبادة ودروس العلم تقامان فيها جنباً إلى جنب، فجُعل في خانقاه شيخو مثلاً دروسٌ أربعة لفقه المذاهب الأربعة، ودرس للحديث النبوي الشريف، ودرس لإقراء القرآن الكريم، وعُين لكل درس من هذه الدروس مدرس وطلبة، واشترط على الطلبة حضور الدروس وحضور وظيفة التصوف[lii]، وقد قال أحمد ابن أبي حجلة في خانقاه شيخو: «سلك فيها بجمع الأئمة الأربعة أحسن المذاهب، فأزاح بتعاليلهم العلل، ومزج الفقهاء بالصوفية فجمع بين العلم والعمل»[liii].

ودُرِّس في الخانقاه الأقبغاوية الفقه الشافعي والفقه الحنفي، ودُرِّس في الخانقاه الجمالية الفقه الحنفي، وأما الخانقاه المهمندارية فجعلها بانيها مدرسة وخانقاه في وقت واحد، ودُرِّس فيها الفقه الحنفي أيضاً، واشتملت بعض الخوانق على كُتّاب لتعليم أطفال المسلمين الأيتام قراءة القرآن الكريم والخط[liv].

أما الزوايا؛ فيُستدل من المدلول اللغوي للزاوية على أنها موضع للانزواء[lv]، وقد ظهرت في البداية على شكل تجمعات دينية في المساجد، يتحلق فيها الطلاب أو مريدو العلم حول شيخ من الشيوخ، فهذا الجامع العتيق في مصر كانت فيه عدة زوايا، ووضع لها ابن دقماق عنواناً واضحاً، هو «الزوايا بالجامع العتيق بمصر الفسطاط»[lvi].

وبمطالعة المصادر التي تحدثت عن الزوايا في عصر المماليك، نجد أنها ثلاثة أنواع: زوايا أنشأها سلاطين المماليك وأمراؤهم، وزوايا فردية، وزوايا جماعية.

ففي النوع الأول؛ اهتم سلاطين المماليك بالعلماء وكرّموهم، ومن وجوه تكريمهم بناء الزوايا من أجلهم، من ذلك ما قام به الظاهر بيبرس عندما شيّد عدداً من الزوايا من أجل الشيخ خضر بن أبي بكر بن موسى المهران العدوي (ت 676هـ = 1277م) فشيّد له زاوية في حماة وزاوية في حمص وأخرى في بعلبك، وعدة زوايا في جبل المزة بدمشق، ثم أنشأ له زاوية سُميت باسمه هي زاوية الشيخ خضر خارج القاهرة وأنزله فيها، ولأجل سكن الشيخ تقي الدين رجب بن أشيرك العجمي (ت 714هـ = 1314م) شيخ طائفة العجم في الديار المصرية، بنى السلطان الناصر محمد بن قلاوون زاوية تقي الدين[lvii].

وارتبطت الزوايا الفردية بأسماء شخصيات عُرفت بالتدين والزهد والفضيلة والعلم، فاقترنت كل زاوية باسم شيخ من الشيوخ، فُعرفت زاوية ابن منظور خارج القاهرة مثلاً بالشيخ جمال الدين محمد بن أحمد بن منظور (ت 696هـ = 1296م) الإمام الزاهد وصاحب المعارف الكثيرة ولاسيما معرفته بعلم الحديث، ونُسبت زاوية الظاهري بظاهر القاهرة إلى الشيخ أحمد بن محمد بن عبد الله الظاهري (ت 696هـ = 1296م) الإمام الحافظ، وارتبط اسم زاوية نصر خارج باب النصر في القاهرة بالشيخ الناسك نصر بن سليمان (ت 719هـ = 1319م) المعروف بالفقه وتردد الأعيان إليه[lviii].

وتعددت الزوايا الجماعية وتنوعت، فمنها ما خُصص للطوائف الدينية، ومنها ما خُصص لسكن الفقراء، فالزاوية القلندرية في ظاهر القاهرة خُصصت لتزول طائفة القلندرية، التي تنتمي إلى الشيخ حسن الجوالقي القلندري، أحد فقراء العجم (ت 722هـ = 1322م)، والزاوية اليونسية خارج القاهرة، كانت تنزلها طائفة اليونسية المنسوبة إلى يونس، ويونس هذا ليس شخصاً واحداً، فهناك يونس بن عبد الرحمن القمي، ويونس السموي، ويونس بن يونس[lix].

وقامت الزاوية بدور فكري فعّال، فدرِّست فيها أنواع كثيرة من العلوم، من ذلك زاوية الجعبري، حيث كان شيخها «يجلس للوعظ فتجتمع إليه الناس، ويذكرهم ويروي الحديث ويشارك في علم الطب وغيره من العلوم»، ووُصف شيخها إبراهيم بن معضاد بأنه «محط الرجال، وملجأ أرباب القال والحال، ينثر على الناس جواهره الفاخرة، ويعظهم»، أما شيخ زاوية الأبناسي فقد «برع في الفقه، واشتهر بسلامة الباطن، وعُرف بالخير والصلاح، وكتب على الفتوى ... وتصدى لأشغال الطلبة عدة سنين» و«أقام فيها يحسن إلى الطلبة، ويجمعهم على التفقه، ويُرتب لهم ما

يأكلون، ويسعى لهم في الرزق، وخصوصاً الواردين من الضواحي، فصار أكثر الطلبة في القاهرة من تلامذته»[lx].

أما الرُبط فمفردها رباط، والرباط والمرابطة تعني ملازمة ثغر العدو، ويفهم من هذا أن الرباط هو الموضع الذي يرابط فيه الجند بخيلهم وعتادهم للدفاع عن البلاد، واقترن ذلك بالجهاد والذود عن البلاد، فالثغور هي موضع المخافة من العدو الذي يُخشى تسربه منها إلى البلاد[lxi].

وقد أشار المقريزي إلى أن الرباط أصبح «بيت الصوفية ومترلهم» وأنه «دار يسكنها أهل طريق الله»، فظهر ما يمكن أن نسميه بالربط السكنية، التي أُلحقت على الأغلب بالخوانق لسكن صوفيتها، ومن الأمثلة عليها رباط الناصر محمد بخانقاه سرياقوس الذي أُعد لسكن صوفية الخانقاه، ورباط الأشرف برسباي الذي جُعل لسكن صوفية خانقاه الأشرف، والرباط الذي بناه بيبرس الجاشنكير قرب خانقاه بيبرس، وجُعل أغلب الظن لسكن صوفية الخانقاه، كما اشترط واقف رباط الصاحب أن يسكنه عشرة من الفقراء، وبُني جانب جامع الأفرم رباط لإقامة الفقراء[lxii].

وقد تأثر الرباط على ما يبدو بانتشار التعليم وإقامة المدارس النظامية الكثيرة في مصر، فأخذ الصفة التعليمية التي باتت إحدى أهدافه الرئيسية، فمثلاً رباط الآثار الذي عمّره الصاحب تاج الدين محمد بن الصاحب فخر الدين محمد (ت 707هـ = 1307م) ــ عُرف بهذا الاسم لاحتوائه على قطعتين من الخشب والحديد يقال إنهما من آثار رسول الله ﷺ ــ قُرر فيه درس للفقهاء الشافعية، ووُجدت فيه خزانة كتب[lxiii]. ومثل رباط البغدادية الذي بنته الست الجليلة تذكار باي خاتون بنت الملك الظاهر بيبرس عام 684هـ = 1285م للشيخة الصالحة زينب بنت أبي البركات المعروفة ببنت البغدادية، وكانت تُترل فيه النساء الخيرات، وجُعل فيه أيضاً شيخة معلمة تعظ النساء وتفقههن[lxiv].

4ــ المساجد والمدارس في باقي أنحاء مصر:

لم تقتصر النهضة العلمية في عصر المماليك على القاهرة وما حولها، بل شملت مناطق مصر الأخرى، فمن المراكز العلمية التي أُسست في الإسكندرية جامع أبي العباس المرسي (ت 685هـ = 1286م)، ومسجد ياقوت العرشي (ت 707هـ = 1307م)، ومسجد تاج الدين بن عطاء الله الإسكندري (ت 709هـ = 1309م)، وجامع العطارين، وكان معهد علم وينبوع ثقافة، ومدرسة أحمد السلفي (ت 576هـ = 1180م) التي قال عنها ابن خلكان (ت 681هـ 1182م): «ولم أر بالإسكندرية مدرسة للشافعية سواها»، والمدرسة الحافظية، ومدرسة ابن

الأنجب، ومدرسة بني حديد. وثمة مدرسة في الإسكندرية لعتيق بن محمد بن سليمان المخزومي الدماميني (ت 731هـ = 1330م) الذي تعلم في قوص ثم تحول إلى الإسكندرية واستوطنها[lxv].

وكانت دمياط مركزاً من مراكز العلم في ذلك العصر أيضاً، وإن لم تبلغ مرتبة الإسكندرية، حيث كان الراغب في الثقافة العالية يجد بغيته في القاهرة والإسكندرية. وقد غدت في القرن السابع الهجري = الثالث عشر الميلادي ملجأ المهاجرين من أهل العراق؛ حيث كانوا يجتمعون ويترافقون ويخرجون من دمشق إلى مصر، وكان أكثرهم ينزل إلى البحر، ويجيء من جهة دمياط ويدخلون مصر.

وظلت مكانة دمياط العلمية تنمو شيئاً فشيئاً، وقصدها العلماء والصوفية من كل حدب وصوب؛ ومن هؤلاء الشيخ فاتح بن عثمان الأسمر التكروري (ت695هـ=1295م) الذي قدم من مراكش نحو عام 678هـ=1279م، فأقام فيها مدة ثم نزح عنها، ثم عاد إليها ثانية، وأقام بجامعها القديم، ورممه واعتنى به، ومنذ ذلك الحين عُرف ذلك الجامع بجامع «الفتح»، وهو تحريف للفظ «فاتح» الاسم الأول للشيخ التكروري[lxvi].

وكانت مدينة بلبيس في إقليم الشرقية مدينة علمية، ومركزاً للدراسة والعلوم منذ عصر الفاطميين واستمرت كذلك حتى عصري الأيوبيين والمماليك، وكانت تستقبل أبناء إقليم الشرقية القادمين إليها من القرى المجاورة، فكثرت مدارسها كثرة ملحوظة، وانتشرت في قراها الكتاتيب ومكاتب الأطفال[lxvii].

أما صعيد مصر (الوجه القبلي) فقد اشتهرت فيه عاصمتان من عواصم الثقافة التي كانت تجتذب العلماء وتخرج الأفاضل؛ وهما مدينتا «قوص» و«أسيوط»، وكانت قوص أوسع شهرة وأعمر بدور العلم؛ لأنها مستقر نائب السلطنة بالصعيد. وازدهرت أسيوط بالعلم، وكان فيها نائب حكم يعينه قاضي القضاة، واشتهرت فيها المدرسة الفائزية التي درّس فيها الكثير من علماء عصر المماليك[lxviii].

واشتهرت مدن أخرى؛ مثل مدينة أدفو التي اشتهرت بأنها مدينة الفقه والعلم، وعُرفت أسنا بأنها مدينة الترف والشعر، وتميزت مدينة قنا بالزهد والتصوف، وتخرّج في أسوان عدد كبير من أهل العلم بشهادة الأدفوي الذي قال: «وقد خرج من أسوان خلائق كثيرة لا يحصون من أهل العلم والرواية والأدب»[lxix]. وفي قوص كانت المدرسة النجيبية، والمدرسة المعزية، والمدرسة السراجية، والمدرسة الغربية. وفي أسوان المدرسة السيفية، والمدرسة النجمية، والمدرسة البانياسية. وفي أسنا المدرسة العزية، والمدرسة الغربية، والمدرسة الأفرمية، والمدرسة المجدية[lxx].

وذكر أبو عثمان النابلسي الصفدي الشافعي (من علماء القرن السابع الهجري = الثالث عشر الميلادي) إنه كان في الفيوم من الجوامع والمساجد ثمانون، خمسة وأربعون جامعاً، وخمسة وثلاثون مسجداً. ثم يعدد هذه الجوامع والمساجد واحداً واحداً[lxxi].

ثانياً ــ مساجد بلاد الشام ومدارسها:

من أجمل ما تبقّى في بلاد الشام من آثار ــ وخاصة دمشق ــ هي تلك المساجد والمدارس، التي تحكي قصة المماليك فيها، وتشهد على إنجازاتهم العلمية، وهي بحاجة إلى عناية عاجلة منّا جميعاً، إذ بدأ بعضها يندثر، ومنها أقدم مدرسة فقهية، والتي أُزيلت عن بكرة أبيها، ولماذا؟ فقط لفتح شارع مكانها! وأترك لكم التعليق.

1ــ مساجد دمشق ومدارسها:

كما أن المقريزي في خططه قد أرّخ للنهضة العلمية في عصر المماليك في القاهرة وما حولها، فإن النعيمي (ت 927 هـ = 1520م) قد أرّخ للنهضة العلمية في دمشق وما حولها من خلال كتابين رائعين، الأول هو«الدارس في تاريخ المدارس»، والثاني هو«تنبيه الطالب والدارس في أحول دور القرآن والحديث والمدارس»، هذان الكتابان يصوران الحياة العلمية والثقافية في دمشق من القرن الخامس وحتى العاشر الهجريين = الحادي عشر والسادس عشر الميلاديين، وأشار أستاذنا الدكتور صلاح الدين المنجد إلى الأهمية القصوى لكتاب الدارس بقوله: «ما أعرف بعد كتاب تاريخ دمشق لابن عساكر كتاباً أجل منه».

وقد ازدهرت دمشق في هذه الفترة بمئات المدارس الكبيرة المختلفة، التي أُسست لتلقي الثقافة الإسلامية الدينية، وما يتصل بها من علوم العربية، فكان فيها مدارس للقرآن والحديث، وللمذاهب الفقهية الأربعة وللطب. وتحدث ابن شداد (ت684 هـ = 1285م) في كتابه الأعلاق الخطيرة عن وجود (90) مدرسة للمذاهب الأربعة في دمشق[lxxii].

وقد أسس هذه المدارس ملوك دمشق وسلاطينها وأمراؤها وولاتها وأزواجهم وأخواتهم من الأميرات والخواتين، ونساؤها العالمات، وعلماؤها وقضاتها وتجارها. وقد وقف أولئك جميعاً على هذه المدارس المتعددة أوقافاً وافرة من الأموال والقرى والضياع والبساتين والحوانيت والخانات والقاعات، حتى أصبحت دمشق وأرباضها أوقافاً لهذه المدارس المبثوثة في كل حي من أحيائها، فكانت هذه الأوقاف تدر المال عليها وتُرغّب الطلاب في التعلم بها.

ولعل دمشق قد تفردت في ذلك الزمن بعدد المدارس الذي زاد على مئة وخمسين مدرسة، وفاق بذلك مدارس بغداد والقاهرة وبيت المقدس وجميع مدن العالم الإسلامي، ونظرة إلى كتابي

النعيمي «الدارس في تاريخ المدارس» و«تنبيه الطالب» تبين أننا لا نبالغ فيما نقول، وكما يقول أستاذي الدكتور المنجد فإن دمشق تفردت بمجد آخر من بين بغداد والقاهرة وبيت المقدس، فقد كانت أسبق هذه المدن الثلاث إلى تأسيس مدارس خاصة بالعلوم، أي الأمكنة التي تتخذ لتلقي علم واحد على أيدي شيوخ موقوفين عليه، متميزة بذلك عن حلقات المساجد[lxxiii].

والآن نبدأ بالمساجد، فلقد عرفت دمشق المساجد منذ أن بنى الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك الجامع الأموي، ومنذ ذلك الوقت أخذت أعداد المساجد بالتزايد حتى بلغ عددها في عصر المماليك 397 مسجداً، باستثناء ما بُني في قراها[lxxiv]. ومن هذه المساجد: الجامع الكريمي: بناه القاضي كريم الدين عبد الكريم بن المعلم سنة 718هـ = 1318م. وجامع الملاح: بناه الصاحب شمس الدين غبريال ناظر الدواوين (ت 701هـ = 1306م). جامع خليخان: بناه نجم الدين بن خليخان سنة 736هـ = 1335م. جامع يلبغا: أنشأه الأمير سيف الدين يلبغا، وكان قبل ذلك تلاً يُشنق عليه المجرمون، حتى شنق به رجل صالح، فكان آخر من شنق هناك، فشُرع في بنائه سنة 747هـ = 1347م. وجامع تنكز: بناه ملك الأمراء سيف الدين تنكز سنة 717هـ = 1317م، وتعد منارته أقدم منارة مملوكية في دمشق. وجامع الأفرم: بناه الأمير جمال الدين الأفرم نائب السلطان سنة 706هـ = 1306م. وجامع النيرب: بناه أمير الدين محمد بن أحمد بن أبي العيش سنة 734هـ = 1333م [lxxv].

ومن أشهر مدارس دمشق؛ الجامع الأموي، الذي قدّم خدمات كثيرة للمدينة من النواحي الدينية والاجتماعية والثقافية، وكان له دوره في التعليم، وشمل ذلك مايلي:

ـــ ضمّ ضمن بنائه الكثير من المدارس الذي تشترك معه في البناء وتنفصل في أوقافها الخاصة، وهي تشغل مناطق محددة من بنائه ومن فنائه، ومن هذه المدارس: دار الحديث القوصية، ودار الحديث الحمصية، ودار الحديث العروية، والزاوية المالكية، والمدرسة الرواحية، والمدرسة الغزالية، والمدرسة التاجية، والمدرسة السيفية، والمدرسة العزية الحنفية.

ـــ ضم حلقات التدريس في مختلف فنون العلم، فدرّس فيه المحدثون والوعاظ والقرّاء.

ـــ كان مقر استقبال العلماء الوافدين إلى دمشق، و هم الذين مارسوا التعليم فيه بعد اجتيازهم الامتحان الدمشقي المعروف، حيث يحضر الناس الدرس الأول للعالم الزائر ويُكثرون من الأسئلة المشكلة ليعرفوا مدى علمه، بغض النظر عن شهرته ومسموعياته[lxxvi].

وعرفت دمشق المدارس التخصصية، ومنها دور القرآن؛ فكانت أولها دار القرآن الرشائية في أواخر القرن الرابع الهجري وبداية القرن الخامس = العاشر والحادي عشر الميلاديين. وفي القرن

السابع الهجري = الثالث عشر الميلادي أُنشئت مدرسة ثانية هي المدرسة الوجيهية، ومعها مدرسة أخرى أُنشئت في القرن نفسه للقرآن والفقه هي المدرسة العمرية[lxxvii].

ثم تتالى تأسيس دور القرآن، فكانت دار القرآن الجزرية: أنشأها الحافظ الإمام محمد بن محمد بن محمد بن الجزري (ت 833 هـ = 1429م). ودار القرآن الخيضرية: بناها محمد بن عبد الله بن خيضر الخيضري (ت 894هـ = 1488م). ودار القرآن الدلامية: بناها أحمد بن المجلس الخواجكي زين الدين دلامة (ت853هـ = 1449م).

ودار القرآن الرشائية: بناها رشأ بن نظيف الدمشقي (ت 444هـ = 1052م). ودار القرآن السنجارية: بناها علي بن إسماعيل السنجاري (ت735هـ = 1334م). ودار القرآن الوجيهية: بناها وجيه الدين محمد بن عثمان التنوخي (ت 701هـ = 1301م)[lxxviii].

وأما دور الحديث فكانت كالتالي: دار الحديث الأشرفية: بناها الملك الأشرف موسى بن العادل سنة 628هـ = 1230م. ودار الحديث البهائية: كانت دار بهاء الدين أبي محمد القاسم، فوقفها آخر عمره دار حديث. ودار الحديث الدوادارية: كانت رواقاً للأمير علم الدين سنجر الدوادار، فوقفه دار حديث ومدرسة. ودار الحديث السكرية: وممن ولي مشيختها الحافظ الذهبي. ودار الحديث النورية: عمّرها نور الدين محمود بن زنكي (ت 569 هـ = 1173م). ودار الحديث النفيسية: بناها النفيس إسماعيل بن محمد بن عبد الواحد الحراني الدمشقي (ت 696هـ = 1296م)[lxxix].

أما مدارس الشافعية؛ فمنها المدرسة الأسعردية: بناها إبراهيم بن مبارك شاه الأسعردي (ت 826هـ = 1422م). والمدرسة الأسدية: لأسد الدين شيركوه. والمدرسة البادرائية: للشيخ نجم البادرائي، بناها سنة 654 هـ = 1256م، وهو أول من درّس فيها، ثم توفي بعد بنائها بسنة عام 655هـ = 1257م. والمدرسة التقوية: لتقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب بناها سنة 574هـ = 1178م. والمدرسة الدماغية: لعائشة جدة فارس الدين بن الدماغ وزوجة شجاع الدين بن الدماغ، بنتها سنة 638هـ = 1240م. والمدرسة الظاهرية الجوانية: للظاهر بيبرس. والمدرسة النجيبية: بناها النجيبي جمال الدين أقوش ت 677هـ = 1278م. [lxxx]

أما مدارس الحنفية؛ فمنها المدرسة البدرية: التي بناها بدر الدين لالا بن الداية أحد أمراء نور الدين محمود بن زنكي. والمدرسة الجقمقية: لسنجر الهلالي وولده شمس الدين، ثم انتزعها منهما الملك الناصر حسن سنة 761هـ = 1359م وأعاد عمارتها. والمدرسة الركنية البرانية: بناها

الأمير ركن الدين منكورس الفلكي سنة نيف وعشرين وستمئة. والمدرسة الريحانية: للخواجا ريحان الطواشي خادم نور الدين. والمدرسة النورية الكبرى: بناها نور الدين محمود[lxxxi].

ومن مدارس المالكية؛ المدرسة الشرابيشية: لشهاب الدين بن نور الدولة بن محاسن الشرابيشي (ت 734هـ = 1333م). والمدرسة الصمصامية. والمدرسة الصلاحية: لصلاح الدين الأيوبي. والزاوية المالكية: غرب الجامع الأموي [lxxxii].

ومن مدارس الحنابلة؛ المدرسة الجوزية: لمحيي الدين بن جمال الدين الجوزي البكري (ت 656هـ = 1258م). والمدرسة الصاحبية: لربيعة خاتون بنت نجم الدين أيوب (ت 643هـ = 1245م). والمدرسة الصدرية: لصدر الدين أبي الفتح أسعد بن عثمان (ت 657هـ = 1259م). والمدرسة العالمة: واقفتها الشيخة العالمة أمة اللطيف بنت الناصح الحنبلي (ت 653هـ = 1255م)[lxxxiii].

ومن مدارس الصوفية؛ الخانقاه الشهابية: للأمير أيدكين بن عبد الله علاء الدين الشهابي (ت 677هـ = 1278م). والخانقاه الكججانية: لإبراهيم الكججاني أنشأها سنة 761هـ = 1259م. والخانقاه اليونسية: بناها الأمير يونس دوادار الظاهر برقوق سنة 784هـ = 1382م. والخانقاه المجاهدية: بناها مجاهد الدين إبراهيم (ت 656هـ = 1258م). والخانقاه الناصرية الجوانية: لصلاح الدين[lxxxiv].

و رباط أبي البيان أو البياني: لأبي البيان بن محمد المعروف بابن الحوراني (ت551هـ = 1160م). والرباط التكريتي: لوجيه الدين محمد بن علي بن طالب التكريتي (ت 670هـ = 1271م). ورباط صفية القلعية: لبنت قاضي القضاة عبد الله بن عطاء الحنفي. ورباط طومان: وطومان من أمراء بني سلجوق [lxxxv].

والزاوية الحريرية بالمزة: للشيخ أحمد الأعقف الحريري التنوخي (ت 723هـ = 1323م). والزاوية الدينورية: للشيخ أبي بكر الدينوري (ت661هـ = 1262م). والزاوية السيوفية: لنجم الدين عيسى ابن شاه أرمن الرومي السيوفي (ت720هـ = 1320م). والزاوية الطالبية الرفاعية: للشيخ طالب الرفاعي (ت683هـ = 1284م). والزاوية العمادية: لأحمد بن العماد المقدسي (ت688هـ = 1289م)[lxxxvi].

2ـ المدارس في أنحاء بلاد الشام:

لقد شيّد سلاطين المماليك من المدارس «ما ملأ الأخطاط وشحنها» كما عبّر القلقشندي[lxxxvii]، وأحصى مجير الدين الحنبلي ما زاد عن أربعين مدرسة في بيت المقدس[lxxxviii]،

في حين أحصى بعض المؤرخين عدد المدارس التي بنيت في بيت المقدس في عصر المماليك فبلغت زهاء خمسين مدرسة من معاهد ومدارس إضافة إلى المدارس التي ورثها بيت المقدس من العصر الأيوبي، حيث جذبت هذه المدارس العلماء من فلسطين والشام ومصر والمغرب والهند وتركيا وأواسط آسيا، ومن دراسة إحصائية ثانية لثمانين عالماً في بيت المقدس منذ الفتح الصلاحي له حتى عام 900 هـ = 1494م تبين أنهم قدموا من 22 قطراً وما تراوح بين 60 و 70 مدينة [lxxxix].

إذاً بلغت الحياة الفكرية في بيت المقدس في عصر المماليك أزهى أدوارها، فاستقطبت العلماء والفقهاء من المشرق والمغرب على حد سواء، وأصبحت المدينة المقدسة من مراكز الإشعاع الفكري خصوصاً بعد سقوط بغداد بيد المغول، فهاجر علماء العراق إلى الشام ومصر[xc]. كما شهد بيت المقدس في ذلك العصر قفزة هائلة في بناء المدارس والأربطة والخوانق والزوايا، فاهتم سلاطين المماليك والأمراء بإقامة المنشآت العلمية والدينية والخيرية الاجتماعية لتوفير أسباب الحياة الطيبة لرواده، فجعلوا منه نيابة مستقلة، وجعلوا فيه نائباً برتبة كبيرة، وأقاموا عشرات الأبنية ووقفوا عليها الأوقاف الهائلة، فأصبح بيت المقدس وقتها قبلة لعلماء وأدباء المغرب والمشرق.

وكان بيت المقدس من اهتمامات السلطان بيبرس، حيث جدّد مسجد الصخرة وغيره، ثم تم بناء مدارس عديدة، من أهمها: المدرسة الأباصيرية، التي أوقفها الأمير علاء الدين آيدوغدي (ت 666 هـ = 1267 م)، ودُفن فيها. والمدرسة السلامية، ووقفها الخواجا مجد الدين أبو الفدا إسماعيل السلامي سنة 700 هـ = 1300 م. والمدرسة الوجيهية، وقفها الشيخ وجيه الدين محمد عثمان بن أسعد الحنبلي (ت 701 هـ = 1301 م). والمدرسة الجالقية، التي أنشأها الأمير ركن الدين بيبرس الجاليق الصالحي سنة 707 هـ=1307 م. والمدرسة الجاولية، التي وقفها الأمير علم الدين سنجر الجاولي نائب غزة وبيت المقدس في 715 هـ = 1315م. والمدرسة التنكزية، التي أنشأها الأمير تنكز الملكي الناصري سنة 729 هـ = 1329 م. والمدرسة الأمينية، وأنشأها الصاحب أمين الدين عبد الله سنة 730 هـ = 1329 م. والمدرسة الأرغونية، وأنشأها الأمير أرغون الكاملي سنة 758 هـ = 1357م وأتمها الأمير ركن الدين بيبرس بعد سنة. والمدرسة الطشتمرية، وبناها الأمير طشتمر العلائي سنة 784 هـ = 1382 م. والمدرسة المزهرية، ووقفها الزيني أبو بكر بن مزهر الأنصاري سنة 885 هـ = 1480م. والمدرسة الزمينية، وأنشأها محمد الزمرد خان، باسم الملك الظاهر خشقدم سنة 875 هـ = 1470م ودعيت السلطانية، ولكن

عندما مات الملك الظاهر نسبت إلى الأشرف قايتباي، ولكنه أمر بهدمها حين رآها وأعاد بنائها سنة 887 هـ = 1482م، وكانت من أجمل المدارس ولعلها آخر المدارس المملوكية.

ومن أهم مدارس الصوفية: الخانقاة الفخرية، ووقفها القاضي فخر الدين أبو عبد الله محمد بن فضل الله في سنة 732 هـ = 1331م، والخانقاه الصلاحية، والزاوية المهمازية، والزاوية الظاهرية، وزاوية البسطامية، والزاوية الأدهمية، ورباط قلاوون، ويسمى أيضاً الرباط المنصوري، أنشأه السلطان سيف الدين قلاوون سنة 681 هـ = 1282م، وأوقفه على الفقراء. ورباط الكرد، أنشأه المقر السيفي كرد سنة 693 هـ = 1293م [xci].

وأُنشئ في حلب الكثير من المدارس، ومن أبرزها: المدرسة المقدمية: وتعرف بمدرسة خان التتن، وهي أقدم مدرسة في حلب. والمدرسة النورية: وتعرف أيضاً باسم النفري نسبة إلى حمام يقع إلى جانبها، وهي مدرسة شافعية وحنفية، أنشأها السلطان نور الدين الشهيد سنة 544هـ = 1150م، وأقام لها أوقافاً كثيرة. والمدرسة العصرونية: وتعود لزمن نور الدين الشهيد، واستقدم ابن عصرون للتدريس فيها، وافتتحت عام 550 هـ = 1155م. والمدرسة الدقاقية: أنشأها مهذب الدين أبو الحسن علي بن فضل الله بن الدقاق سنة 662 هـ = 1263م. والمدرسة الطرنطائية: وتنسب للأمير سيف الدين طرنطاي بن عبد الله وهو من أمراء دمشق (ت 792 هـ = 1390م). والمدرسة الصاحبية: أنشأها أحمد بن يعقوب بن الصاحب عام 765 هـ = 1364م وتسمى أيضاً جامع الفستق. والمدرسة اليشبكية: أسسها الأمير يشبك بن عبد الله اليوسفي المؤيدي عام 820 هـ = 1397م ودُفن فيها بعد مقتله [xcii].

وبُني في حماة مساجد كثيرة أهمها: الجامع الكبير، ويعرف بجامع السوق الأعلى أو جامع أبي عبيدة بن الجراح الذي فتح حماة صلحاً وحوّل كنيستها إلى جامع، ومن أهم المعالم المملوكية فيه المنبر الخشبي المصنوع من قبل زين الدين كتبغا نائب حماة سنة 701 هـ =1301م، وهو آية في الروعة والجمال من حيث حفره وتطعيمه بالصدف الدقيق الناصع المجزأ إلى أشكال هندسية دقيقة جداً [xciii]. والجامع النوري: بناه نور الدين زنكي كما هو ظاهر من الكتابة التي تعلو واجهته الغربية والشمالية المؤرخة 558 هـ = 1162م[xciv]. وجامع الحيّات: وبناه الملك المؤيد إسماعيل بن علي (أبو الفداء)، وهو يحتوي على كل ما تبقى من التراث الأيوبي. وجامع السلطان: بناه السلطان بدر الدين حسن شقيق أبي الفداء (ت 726 هـ = 1325م). وجامع الحسنين: وهو جامع قديم تهدم في الزلزلة الكبرى التي حدثت سنة 552 هـ = 1157م، وقام نور الدين محمود

زنكي بعمارة ما تهدم منه. والجامع العزي: بناه محمد بن حمزة العزي سنة 623 هـ = 1226م كما هو مكتوب على حجر فيه، لكن الصابوني ذكر أنه بني سنة 723 هـ = 1323م.

ومن أهم مدارس حماة: المدرسة الحنفية، والمدرسة النورية الشافعية (العصرونية)، والمدرسة الفريجية، والمدرسة الخاتونية، والمدرسة الشيخية، ومدرسة دار القرآن، والمدرسة النجمية، والمدرسة الطواشية، والمدرسة المظفرية. ومن أهم مدارس الصوفية في حماة خانقاه نور الدين، والزاوية الحورانية، وزاوية الخضر، والزاوية القادرية الكيلانية، والزاوية البيانية، والزاوية الشيخية [xcv].

وبُنيت في حمص المدرسة النورية التي أسسها نور الدين الشهيد، وهي أولى المدارس الإسلامية فيها. وبُنيت في اللاذقية المدرسة الإينالية، وقد تم تشييدها سنة 825 هـ = 1421م من قبل نائب طرابلس الأمير سيف الدين إينال بن عبد الله النوروزي من مماليك نوروز الحافظي (ت 829 هـ = 1425 م). وبُنيت المدرسة النورية بظاهر مدينة بعلبك.

أما طرابلس، فقد قال عبد الغني النابلسي (ت 1143 هـ = 1731م) ــ أي بعد أكثر من مائة عام من حكم المماليك ــ متذكراً مدارس عصر المماليك فيها: «واعلم أيضاً أن ببلدة أطرابلس المحميّة مدارس وزوايا ومساجد لا تعدّ ولا تحصى ... وسمعنا أنّه كان بها ثلاثمئة وستون مدرسة، ولكن الآن أكثرها متهدم وغالبها مهجور. والجوامع التي تقام فيها الآن الجمعة اثنا عشر جامعاً» [xcvi].

ومن أهم مساجد نيابة صفد الجامع الظاهري الذي يعرف أيضاً بالجامع الأحمر: أسسه سنة 664هـ=1266م السلطان الظاهر بيبرس، وكان مركزاً للنهضة العلمية. وجامع قلعة صفد: بناه السلطان الظاهر بيبرس سنة 664هـ = 1266م. وجامع الجوكندار: بُني من قبل النائب سيف الدين بلبان الجوكندار 702هـ =1302م. والجامع الشهابي وجامع قرية عين الزيتون: شيدهما النائب ابن صبح (753 -759هـ = 1352-1359م)[xcvii].

ومن أهم المدارس التي وُجدت في نيابة صفد: مدرسة أرقطاي أو السيفية: شيدها نائب السلطنة بصفد الأمير أرقطاي. ومدرسة قلعة صفد: بناها نائب القلعة الأمير صلاح الدين القرمشي ابن الخشّاب بعد سنة 755 هـ = 1354م. ومدرسة قرية ميس: بناها الشيخ علي بن عبد العالي الميسي (ت 933هـ = 1526م) في قرية ميس بجبل عامل، و كانت تستوعب 400 طالب [xcviii].

ومن أهم الزوايا التي وُجدت في نيابة صفد زاوية الشيخ قليبك العجمي في قرية عين الزيتون، أقامها نائب صفد شمس الدين سنقر شاه (703- 704هـ = 1303-1304م). وزاوية الشيخ

عمّار العكبري: تقع في قرية عكبرا بالقرب من صفد، شيدها صاحب قرية عكبرا. وزاوية الشيخ يوسف بن شمخ الحمراوي: تقع في قرية الحمرا جنوبي صفد. وزاوية الشيخ سليمان السعودي (ت 749هـ=1348م): في مدينة صفد. وزاوية حسام الدين بن عبد الله الصفدي (ت816هـ=1413م)، بمدينة صفد. وزاوية الشيخ شمس الدّين ــ ويعتقد بأنه شيخ الربوة ــ، وتقع في حي الأكراد بمدينة صفد. والخانقاه الصلاحية: في قرية حطين، شيدها السلطان صلاح الدين الأيوبي سنة 583هـ = 1187م على أثر معركة حطين[xcix].

وأشار غرس الدين خليل بن شاهين الظاهري إلى وجود مدارس عديدة في غزة، أهمها: المدرسة الشافعية التي أنشأها الأمير علم الدين سنجر الجاولي الشافعي نائب غزة. ومدرسة الكجكي: من إنشاء الأمير شاهين بن عبد الله الكجكي عام 821 هـ = 1418م. والمدرسة البردبكية: بناها الأمير بردبك الدوادار عام 859هـ = 1455م. ومدرسة الأشرف قايتباي من إنشاء السلطان قايتباي[c].

ثالثاً ــ أماكن تعليمية أخرى مختلفة[ci]:

وُجد في عصر المماليك أماكن تعليمية أخرى غير المساجد والمدارس والخوانق والربط والزوايا، وهي كالتالي.

1ــ مكاتب التعليم:

ويطلق عليها تسميات متعددة كالمكاتب والكتاتيب، ومفردهما مكتب وكُتّاب، وهي أماكن تعليم الصبيان القراءة والكتابة والقرآن الكريم والمبادئ العلمية الأولية، وهو تعليم ظهر تنظيمه في الإسلام على يد الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه (13 ــ 23هـ = 634ــ 644م)[cii].

وكانت هذه المكاتب في العصر المملوكي على نوعين: مكاتب الأيتام، والمكاتب الخاصة، أما مكاتب الأيتام فتُسمى أيضاً مكاتب الأسبلة، وسبب هاتين التسميتين أن هذه المكاتب كانت تُعلم الأيتام، وكانت تقام بالقرب من سبل المياه الموقوفة، ومن الأمثلة عنها المكتب الذي أقيم بجانب جامع آق سنقر، و كان بجانبه حانوتٌ لسقي الناس الماء، والمكتب الذي أقيم بالقرب من المدرسة البوبكرية، ووُجد إلى جانبه حوض ماء للسقاية [ciii].

وقد بنى السلاطين والأمراء ورعايا الدولة هذه المكاتب بجانب المساجد والمدارس، ومن ذلك مكتب الأيتام الذي أنشأه السلطان حسن بن محمد بن قلاوون بجانب جامعه[civ]. ومكتب الأيتام الذي شيّده السلطان بيبرس البندقداري بجانب مدرسته، والمكتب الذي أنشأه الأمير شمس الدين قراسنقر المنصوري بجوار مدرسته، وشيّدت الست خوند تتر الحجازية بنت السلطان محمد بن قلاوون مكتباً للسبيل بجانب مدرستها[cv].

ونشأ النوع الثاني من المكاتب ــ المكاتب الخاصة ــ بعد أن وُجد بعض المؤدبين القدرة على فتح مكتب خاص به لتعليم الصبيان، وهذا ما يفهم من كلام الفقيه ابن الحاج عن المؤدبين: «وينبغي له أن يتجنب ما يفعله بعض عوام المؤدبين من أنه إذا قلّ عنده الصبيان، أو فتح مكتباً وليس به أحد، فإنه يكتب أوراقاً ويعلقها على باب المكتب ليكثر مجيء الصبيان إليه».

وسُمي المسؤول عن التعليم في هذه المكاتب بالمؤدب وبالمعلم، ودُرّس فيها: آداب الدين وآداب القرآن الكريم، وقراءة القرآن، والخط والحساب، وهذه معارف أولية تتناسب مع سن الطفل، حيث اشتُرط في عمره عند الإتيان به إلى الكتّاب أن يكون سبع سنين، وهو السن الذي يُكلف به بالصلاة والآداب الشرعية وفقاً للسنة النبوية[cvi].

2ــ منازل العلماء:

عمرت بيوت العلماء بدروس العلم، فعُقدت فيها المجالس العلمية، فيكون العلماء قد شغلوا جلّ أوقاتهم بالأنشطة التعليمية، متنقلين بين المسجد والمدرسة والمنزل، وقد كثرت منازل العلماء العلمية في عصر المماليك، وتردد إليها طلبة العلم صغارهم وكبارهم، ومن تلك المنازل:

ــ منزل قاضي القضاة بدر الدين محمد بن إبراهيم بن سعد الله بن جماعة (ت 733هـ = 1332م) الذي عمي في آخر حياته عام 727هـ = 1326م، فصُرف عن القضاء، فتفرّغ للتدريس في منزله قريباً من سبع سنين يعلم الطلبة[cvii].

ــ ويروي صلاح الدين الصفدي عن تعلمه بمنزل ابن جماعة، فيقول: «وسمعت عليه مع جماعة بمنزله المجاور للجامع الناصري، وأجاز لي في سنة ثمان وعشرين وسبعمئة»[cviii].

ــ ويقدم ابن الجزري محمد بن محمد (ت 833هـ = 1429م) فكرة عن تلقيه العلم بمنزل أحد علماء مصر عام 769هـ = 1367م وعام 771هـ = 1369م، فيقول: «ثم إني رحلت إليه في سنة تسع وستين فسألته القراءة فامتنع علي، فلما رأى أهليتي أذن لي أن آتي إليه في

الليل، فكنت آتي إليه نصف الليل وبعده، فقرأت عليه ختمة جمعاً بالقراءات السبع ... ثم رحلت إليه الرحلة الثانية سنة إحدى وسبعين، فقرأت عليه ... فكنت آتيه ليلاً، فوالله ما أعلمني جئت إليه في وقت من الأوقات في الليل إلا وخرج إلي فجلس على صفة تجاه داره فقرأت عليه»[cix].

3ــ القباب والمشاهد:

أقيمت إلى جوار الكثير من المدارس قبة جُعل تحتها في أغلب الأحيان قبر أحد سلاطين دولة المماليك، والمهم في هذه القباب أنها شهدت نوعاً من النشاط العلمي الشعبي، ويأتي في مقدمتها القبة المنصورية الملحقة بالمدرسة المنصورية، وفيها دُفن الملك المنصور قلاوون، وابنه الناصر محمد، والملك الصالح إسماعيل بن محمد بن قلاوون، وقُررت فيها دروس للفقه على المذاهب الأربعة، ودرس للحديث النبوي في رواقها، وكان فيها قرّاء يتناوبون القراءة في النوافذ المطلة على الطريق ليلاً ونهاراً، وإمام يصلي بالناس الصلوات الخمس، وجُعل فيها خزانة كتب تضم (عدة أحمال) من الكتب في أنواع العلوم[cx]. ومن تلك القباب القبة الصالحية بجوار المدرسة الصالحية، التي شيّدتها شجر الدر من أجل مولاها الصالح نجم الدين أيوب، ورُتب فيها عدة قرّاء، وكذلك قبة المدرسة الأقبغاوية، وقبة المدرسة الناصرية، وقبة المدرسة البقرية، وقبة مدرسة ابن المغربي[cxi].

أما المشاهد فهي جمع مشهد، وهو اسم مكان من الشهادة، وأطلق هذا اللفظ بداية على الأبنية التي شُيدت على قبور أهل البيت، وأول ما أطلق على مشهد سيدنا الحسين بن علي ﷺ حين دُفن في المكان الذي استشهد فيه، ثم أُطلق على بقية قبور الأئمة، ثم قبور أئمة المذاهب والمشاهير كمشهد الإمام أبي حنيفة ومشهد الرفاعي[cxii]. وقد شهدت مشاهد عصر المماليك نشاطاً علمياً شعبياً، ويأتي في مقدمتها المشهد الحسيني الذي كان حافلاً بالنشاط التعليمي، ودرّس فيه الكثير من علماء مصر، كصدر الدين محمد بن عمر بن مكي (ت 716هـ = 1316م) الجامع للعلوم الشرعية والعقلية واللغوية[cxiii]، والشهاب أحمد بن محمد بن قيس (ت 749هـ = 1348م) شيخ الشافعية بالديار المصرية[cxiv]. ولم تقتصر أهمية المشهد الحسيني على الناحية العلمية، بل تجاوزتها إلى الناحية الدينية، حتى إن كسوة الكعبة المشرفة كانت تنسج فيه في عصر المماليك[cxv]. ومن المشاهد التي شهدت نشاطاً علمياً المشهد النفيسي، فقد درّس فيه عالم الرياضيات محيي الدين سليمان بن جعفر الأسنوي (ت 756هـ = 1355م). ومشهد الإمام

الشافعي، ودرّس فيه عالم العربية ابن اللبان الدمشقي المصري محمد بن أحمد بن عبد المؤمن (ت749هـ = 748م) [cxvi].

4ــ وسائل التثقيف الشعبي العام:

عرف عصر المماليك وسائل تعليمية أخرى أخذت شكل التثقيف العام، وشكل الوعظ والإرشاد، ويدعى من يقوم بهذه الأعمال القاص وقارئ الكرسي والواعظ والمنشد؛ فالقاص هو من يجلس في الطرقات ويذكر للناس الآيات القرآنية والأحاديث الشريفة وأخبار السلف، ويُشترط عليه أن لا يذكر إلا ما يفهمه العامة من الناس. ويشترك قارئ الكرسي مع القاص في أمور ويختلف عنه في أمور أخرى، فهما يتشابهان بالجلوس لتعليم العامة وقراءة الفقه والتفسير وما شابه ذلك، ويفترقان في أن القاص يقرأ من صدره وحفظه، ويكون ذلك إما واقفاً أو جالساً، ويكون جلوسه ووقوفه بالطرقات، بينما يجلس قارئ الكرسي على كرسي في جامع أو في مدرسة أو في خانقاه، ولا يقرأ درسه إلا من كتاب. أما الواعظ، فتشبه مهمته مهمة الخطيب، من حيث تذكيره الناس بأوامر الله عز وجل ونواهيه، وهو ينبئهم بأخبار السلف الصالح وما كانوا عليه. وتكمن مهمة المنشد في ذكر الأشعار المشتملة على مدائح النبي صلى الله عليه وسلم، وعلى ذكر الله تعالى وآلائه وعظمته وخشيته، وذكر الموت وما بعده[cxvii].

إن هذه الوسائل تظهر لوناً جديداً من ألوان النشاط العلمي، وتظهر حرص علماء العصر على إيصال علومهم للناس، حتى لو تطلب ذلك الخروج إلى الطرقات، فوصلوا بذلك إلى من لم يأت إلى المدرسة أو الجامع أو المترل.

رابعاً ــ المكتبات:

أقبل العرب والمسلمون على اقتناء الكتب إقبالاً منقطع النظير، يشبه إلى حد كبير شغف الناس في عصرنا هذا باقتناء السيارات والثلاجات وأجهزة التلفزيون، فأصبحت الكتب هي مطلب كل من يستطيع تحمل نفقات الحصول عليها، وأقبل الناس على اقتنائها بلهفة متزايدة لم يعرف لها التاريخ من قبل مثيلاً. فكان المجتمع ــ حتى الفئة الفقيرة منه ــ متعطشاً لقراءة الكتب، وكان العمال يقنعون بطعام قليل ولباس حقير ليتمكنوا من شراء الكتب حتى بآخر قطعة من نقودهم. وكما يقاس ثراء الناس اليوم بمدى ما يملكون من عربات فاخرة مثلاً، قدّر الناس في عصور الحضارة العربية الإسلامية الثراء بمدى ما يُقتنى من كتب أو مخطوطات[cxviii].

ولذلك؛ تعددت أنواع المكتبات في عصر المماليك، فوُجدت المكتبات الملحقة بالمساجد، والمكتبات الملحقة بالمدارس، والمكتبات الشخصية الخاصة، وكان لسوق الكتب دوره العلمي الكبير، واشتملت هذه المكتبات على عدد كبير من الكتب في شتى أنواع العلوم والمعارف، ووضعت تحت تصرف طلبة العلم كوقف يطلعون على ما فيها وينهلون منها، وارتبطت بنظام خاص تعلق بقائمة الوقف يحفظها ويصونها وينظم الاطلاع على محتوياتها وتداولها.

فأُلحقت المكتبات بالكثير من المساجد، فألحقت مكتبة بالجامع الخطيري، وأخرى بجامع قوص، وثالثة بجامع الحاكمي[cxix]. واقترنت المكتبة بالمدرسة في عصر المماليك؛ لذلك يندر أن نجد مدرسة ليس فيها مكتبة موقوفة عليها، فقد كان في المدارس مكتبات تحتوي مادة علمية يطلع عليها الطلاب، ويستكملون بها تعلمهم، وكان في المدرسة الفاضلية «جملة عظيمة من الكتب في سائر العلوم يُقال إنها كانت مئة ألف مجلد»[cxx]. ورُتب بالمدرسة والقبة المنصورية خزانة كتب تحوي الكثير من أنواع العلوم والفنون[cxxi]، وألحقت مكتبات أخرى بكل من المدرسة الناصرية، والمدرسة الحجازية، والمدرسة الصاحبية البهائية، والمدرسة الظاهرية، والمدرسة الطيبرسية، والمدرسة المنكوتمرية، وغير هذه المدارس[cxxii].

وكان يشرف على المكتبة موظف خاص يُسمى «خازن الكتب»، وحدد تاج الدين السبكي مهمته تبعاً لشروط الواقف بقوله: «وحق عليه الاحتفاظ بها، وترميم شعثها، وحبكها عند احتياجها للحبك، والضنة بها على من ليس من أهلها، وبذلها للمحتاج إليها، وأن يقدم في العارية الفقراء الذين يصعب عليهم تحصيل الكتب على الأغنياء، وكثيراً ما يشترط الواقف ألا يخرج الكتاب إلا برهن يحرز قيمته ... فليس للخازن أن يعير إلا برهن»[cxxiii].

وحدد الواقفون نظام الاطلاع والاستعارة بدقة تامة بغية الحفاظ على الكتب من الضياع؛ فمن الواقفين من منع الاطلاع على الكتب لمن عُرف بتفريطه بها. واشترط بعضهم الآخر كتابة اسم المستعير على أن يُمحى بعد الإعادة زيادة في الحرص. وحرّم بعض الواقفين خروج الكتب من المكتبة نهائياً [cxxiv]. و في حال سُمح بإخراج الكتاب من المدرسة، فكثيراً ما كان يشترط الواقف ألّا يتم ذلك إلا برهن. والأولى في الإعارة أن تكون للمحتاجين إلى الكتب والعارفين لقيمتها[cxxv].

وحُدد موعد فتح المكتبة في الأوقات المتوافقة مع الدروس المخصصة. ونص بعض الواقفين على ضرورة عزل خازن الكتب إذا بدا منه أيّ تقصير[cxxvi].

وكثرت إلى جانب مكتبات المساجد والمدارس المكتبات الخاصة؛ وهي المكتبات الشخصية المترلية المملوكة من قبل الأفراد، وقد ساهم هذا النوع من المكتبات في الحركة الفكرية، لغنى هذه

المكتبات بالكتب الكثيرة التي جعلها أصحابها وقفاً أو ميراثاً للمدارس وللأصدقاء في أغلب الحالات، ويعد إنشاء المكتبات الخاصة هذه سمة من سمات الشخصية المرموقة اجتماعياً آنذاك.

ومن المكتبات المنزلية الموقوفة تلك التي أقامها عدد من كبار علماء نيابة حماة والذين شكلوا بيوتاً علمية صارت مقصد طالبي العلم من جميع أرجاء الدولة؛ كآل البارزي، وآل قرناص، آل المُغيزل، وتعد مكتبة العالم الجليل أبي القاسم هبة الله البارزي من أعظم المكتبات الخاصة في ذلك العصر، حيث اجتمع عنده من الكتب ما لا يحصى كثرة، وما لم يجتمع لأهل عصره، وكان إذا سمع بتصنيف لأحد من أهل عصره جهّز الدراهم واستحثه واستنسخه وأضافه إلى مكتبته الكبيرة[cxxvii].

وعُرف من أمراء المماليك من تولّع بجمع الكتب، كالأمير أرغون الدوادار (ت731هـ = 1330م) نائب السلطنة المصرية، حيث «كانت له عناية عظيمة بالكتب، جمع منها جمعاً ما جمعه أحد من أبناء جنسه، وكان الناس قد علموا رغبته في الكتب فهرعوا إليه بها»[cxxviii]. وهذا الشيخ محمد المصري الكفركناوي (من علماء فلسطين في عصر المماليك): «استنسخ كتباً وأوقفها، وتنوع في الصدقات»[cxxix]. وقد أوقف الطبيب المشهور ابن النفيس (ت 687هـ = 1288م) كتبه على البيمارستان المنصوري[cxxx]. كما أوقف الفقيه النحوي يحيى بن عبد الوهاب بن عبد الرحيم الدمنهوري (ت 721هـ = 1321م) كتبه عند موته على جامع الظاهر بيبرس[cxxxi].

ـ سوق الكتب:

أُنشئ في قاهرة مصر (عاصمة دولة المماليك) بعد عام 700هـ = 1300م سوق الكتبيين، وهو سوق بيع الكتب والاتجار بها، فامتلأ هذا السوق بواردية من طلبة العلم والعلماء والتجار والنُسّاخ، فأصبح ملجأ أصحاب الفكر، وشهد وفود الكثير من عشاق الكتب، والباحثين عن نفائسها، وكان المؤرخ الشهير المقريزي (ت 845هـ=1441 م) من المحبين لهذا السوق ومن الواردين إليه، وعن ذلك يقول: «وما برح هذا السوق مجمعاً لأهل العلم يترددون إليه، وقد أنشدت قديماً لبعضهم:

مجالسة الســـوق مذمومة ومنها مجالـــس قد تحتســـب

فلا تقربنْ غير سوق الجياد وسوق السلاح وسوق الكتب

فهاتيك آلـــة أهل الـــوغى وهاتيك آلـــة أهل الأدب»[cxxxii]

فكانت حوانيت الورّاقين أحد مصادر كسب الرزق من جهة، ومصدراً من مصادر تلقي العلم من جهة أخرى، ففيها التقى العلماء وطالبو العلم، ودارت بينهم المناقشات والمحاورات والاستفسارات، فأضفى كل ذلك على السوق صفة فكرية ونشاطاً علمياً مستمراً.

ويعطينا الرحّالة ابن رشيد ــ في خبر عن أحد مشايخه ــ صورة جلية عن النشاط العلمي الدائر في سوق الكتب، حين ينقل قول أستاذه: «واجتمعنا يوماً بسوق الكتبيين عند محمد بن الأطرش الكتبي الدمشقي في جماعة، فقال لنا: والله ما تتفرقوا حتى ينشدني كل واحد منكم، قال: فأنشده شهاب الدين مسعود السنبلي ... قال: وأنشده وجيه الدين ضياء بن عبد الكريم المناوي لنفسه، وهو منسوب لمنية بني خصيب ... قال شيخنا: أنشدني وجيه الدين الأبيات المذكورة، قال شيخنا: وأنشدته أنا (يعني الشيخ أنه أنشد محمد بن الأطرش) »[cxxxiii].

وتتكرر صور التقاء العلماء في سوق الكتب وتبادل الأشعار والأفكار فيما بينهم غير ما مرّة مدللة على اتساع النشاط الفكري الذي يخلقه ذلك السوق، ومن تلك الصور ما يبينه صلاح الدين الصفدي عن لقاءاته العديدة مع جعفر بن ثعلب الأدفوي (ت 748هـ=1347م)، فيقول: «ورأيته مرّات في سوق الكتب في القاهرة، وأنشدني من شعره»[cxxxiv].

واتخذ بعض العلماء سوق الكتب مكتبة يقيم فيها، يقرأ وينسخ ما يناسبه من معلومات، وبذلك يكون سوق الكتبيين أشبه بمكتبة عامة يتردد إليها طلبة العلم، ونجد مثلاً أن الشيخ بدر الدين محمد بن بهادر بن عبد الله التركي الأصل المصري الزركشي (ت 794هـ = 1391م) «كان منقطعاً في منزله لا يتردد إلى أحد إلا إلى سوق الكتب، وإذا حضره لا يشتري شيئاً، وإنما يطالع في حانوت الكتبي طول نهاره، ومعه ظهور أوراق يعلق فيها ما يعجبه، ثم يرجع فينقله إلى تصانيفه»[cxxxv].

وارتبطت بسوق الكتب مهن كثيرة دلت على الحرص على الكتاب، وعلى كل ما يتصل بشؤونه الفنية، وأهم هذه المهن: الوراقة وتجارة الكتب، فأما الوراقة فعرّفها ابن خلدون على أنها مهنة تتعلق بالورّاقين، وهم المشتغلون بالاستنساخ والتصحيح والتجليد وسائر الأمور الكتبية والدواوين[cxxxvi]. حيث يقوم ناسخ الكتب مقام آلة الطباعة في عصرنا، فينسخ نسخاً من كتب عصره ويبيعها. وقد اشتهر بالعمل بهذه المهنة كثير من علماء عصر المماليك، ومنهم عمر بن حسن بن عمر بن حبيب (ت 726هـ = 1325م)، الذي امتهن هذه الصنعة ونسخ الكثير من الكتب. وامتهن هذه الصنعة أحمد بن عبد الوهاب النويري (ت 733هـ = 1332م) فنسخ

صحيح البخاري ثماني مرات، وكان يبيع كل نسخة بألف درهم، ونسخ تاريخه المشهور نهاية الأرب وباعه بألفي درهم، وكان يكتب كل يوم ثلاث كراريس[cxxxvii].

وامتهن العلماء أيضاً تجارة الكتب، فكان منهم عالم النحو واللغة والقراءات عبد اللطيف بن عبد العزيز بن يوسف بن أبي العز المعروف بابن المرحل (ت744هـ = 1343م) الذي عمل بالتدريس في جامع الحاكم، واشتغل أيضاً بتجارة الكتب. وعبد المؤمن بن عبد الرحمن بن محمد بن محمد بن عمر الكاتب (ت741هـ = 1340م) الذي وُلد في حلب، ثم قدم القاهرة وعمل بتجارة الكتب واغتنى منها، وذُكر عنه أنه كان يجلس في كل سوق تباع فيه المجلدات والدفاتر[cxxxviii].